

الفضاء العام الافتراضي، الممارسة الجديدة للديمقراطية

Public virtual space, the new practice of democracy

1 دليلة فرشان

1 كلية علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر -3- (الجزائر)، ferchane.dalila@univ-alger3. dz

تاريخ النشر: مارس/2022

تاريخ القبول: 2022/03/03

تاريخ الإرسال: 2021/07/06

الملخص:

تمثل ظاهرة الممارسة الديمقراطية من القضايا التي أصبحت تفرض نفسها على الساحة العلمية، مما يتطلب تحليلها بشكل علمي معمق، خصوصا عندما يتعلق الأمر بتحليل حضور التواصل في الممارسة السياسية ودوره في تعزيز الديمقراطية. ذلك أن توظيف التواصل في إطار مجتمعي عام للتحديث، كفيل بضمان تنمية سياسية، يمكن الرهان عليها من أجل بناء وتحقيق التنمية الشاملة. من هنا جاء اهتمامنا بطرح موضوع دور شبكات التواصل الاجتماعي في تكريس مبدأ حرية التعبير، مستنديين على ما طرحه هابرماس حول الفضاء العام، وما تتيحه التكنولوجيا الجديدة للاتصال من إمكانات تواصلية وتفاعلية لا محدودة، أدت إلى إفرار مجالا جديدا افتراضيا.

الكلمات المفتاحية: الفضاء العام، الديمقراطية الرقمية. التكنولوجيا الجديدة للاتصال. شبكات التواصل الاجتماعي. حرية التعبير.

Abstract:

The phenomenon of democratic practice is an issue that has emerged the scientific arena. This requires in-depth scientific analyzing the presence of communication in political practice. and its in promoting democracy; hence our interest in raising the issue of the role of social media in maintaining the principal of freedom of expression building on Habermas' theoretical research on public space. Countless opportunities offered by the new technology, and the potential for unlimited and interactive new communication that have led to the creation of a new virtual space.

key words: space public; digital democracy ; new technology communication; social networks; freedom expression .

مقدمة:

تمثل ظاهرة الممارسة الديمقراطية من القضايا التي أصبحت تفرض نفسها على الساحة العلمية. كما يعد تناول موضوع دور شبكات التواصل الاجتماعي في تعزيز الديمقراطية الرقمية من المواضيع الحديثة باعتبارها إحدى النتائج الحتمية للعصر الرقمي. فمع تطور تكنولوجيا الاتصال، وظهور الجيل الثاني للإنترنت، أو ما يصطلح عليه بالويب 0.2، تعاظم استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، إلى حد أنها نجحت في بلورة مفهوما جديدا للعملية الاتصالية، وأعدت ترتيب دور كل من المرسل والمتلقي فيها. حيث أعطت هذه الشبكات لكل مستخدم إمكانية إنتاج المعلومة نصا وصورة، ومنحته الفرصة للإفصاح عن آرائه، والقدرة على أن يحشد حوله افتراضيا، متفاعلين ومشاركين ومتعاطفين معه، أمام ما يطرحه من قضايا، خاصة منها تلك المتعلقة بالشأن والصالح العام. مكاسب لظالما تعالت الأصوات المطالبة بها، وتوالت النداءات لتكريسها على أرض الواقع.

انطلاقا من هذه المقدمة، جاء طرحنا لموضوع دور شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الفضاء العام الافتراضي، وفي تكريس الديمقراطية وتوجيه مسارها، سعيا لإبراز كيف أسهمت هذه الشبكات في تشكيل آراء واتجاهات الأفراد، وفي تجلياتها وأبعادها السياسية والإيديولوجية، خاصة ونحن نتطرق إلى دراسة هذه الظاهرة في هذه المرحلة التي تزايد فيها عدد مستخدمي هذه الشبكات، وتضاعف عدد الناشطين فيها، باحثين عن الدور الذي قد يلعبه هؤلاء في تشكيل الفضاء العام الافتراضي. إذ أصبح المواطن بفضل ثورة الويب 0.2، بإمكانه أن ينتج بدوره خطابا يحمل في طياته الممارسة السياسية في إطار الدفاع عن القضايا المتعلقة بالشأن والصالح العام. وأن يعبر عن رأيه بصوت عال يتجاوز صدها الحدود المحلية. كما يكتسي موضوع ورقتنا أهميته من أهميه الإشكال المطروح حول القدرة البالغة لشبكات التواصل الاجتماعي في تشكيلها فضاء عموميا افتراضيا، أتاح لكل أفراد المجتمع فرصة المشاركة في طرح ومناقشة القضايا التي تتعلق بالشأن العام أو المصلحة العامة. وعلى هذا الأساس حاولنا من خلال هذا الطرح، الخوض في ماهية المجال الافتراضي؟ وفي كيفية إسهام شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل مفاصل هذا الفضاء؟

بحثا عن الإجابة على إشكالية ورقتنا هذه، كان من المفيد التطرق إلى نقاط رئيسة تساعدنا على تفسير وفهم الظاهرة المطروحة، وذلك من خلال تعريف في المقام الأول الديمقراطية الرقمية، باعتبارها مفهوم جديد أفرزته التكنولوجيا الجديدة للاتصال، حيث شكلت الثورة التكنولوجية منعطفا هاما في الممارسة الاتصالية بين الحاكم والمحكوم، وتحولا جذريا في المسار الديمقراطي. ونتيجة للنمو الكبير لشبكة الإنترنت، والاستخدام الواسع والمستمر لمواقع التواصل الاجتماعي، التي أضحت من أهم أدوات صناعة الرأي العام المحلي والعالمي، عمدنا التطرق إلى الدور الذي تلعبه هذه التكنولوجيا في تشكيل الفضاء العام الافتراضي.

تاركين المجال لبحوث مستقبلية للبحث في الأبعاد الاجتماعية والسياسية، وما قد تفرزه التركيبة الاجتماعية الإلكترونية في شتى المجالات.

المبحث الأول: الديمقراطية الرقمية، بين المفهوم والممارسة

مع بروز النهضة التنويرية التي شاهدها أوروبا في القرن الثامن عشر، برزت مفاهيم جديدة شكلت محور دراسات عديدة خاصة في ما يتعلق بالشأن السياسي وبالممارسة الديمقراطية التي شملت عملية التأثير المتبادل بين الحاكم والمحكوم. كما أعطت هذه الدراسات أهمية للدور الذي يلعبه الرأي العام، وكذا جماعات الضغط والانتخابات والأحزاب كأطراف فاعلة في العملية السياسية، فلم تعد السياسة، بمفهومها الجديد وبمنظور النخبة البرجوازية الغربية آنذاك، حكرا على من يمارسون العمل السياسي فحسب، بل أصبحت السياسة سلوكا يقوم به أفراد المجتمع العاديين، كما يقوم به القائم على السلطة السياسية. لقد أسهم هذا الطرح في إحداث تحول عميق في الفكر السياسي. فمن خلال رفضه للطرح القائم على الفاعل التقليدي المحتكر للسلطة، ومن خلال تجاوزه للمنظور التوجيهي الخطي لعملية الاتصال، أعطى بعدا جديدا لمفهوم الاتصال السياسي. حيث برزت مفاهيم كالحرية، والتعبير، والتواصل، والمشاركة السياسية التي يحتل في كنفها الاتصال مكانة مركزية. ذلك ما سنتطرق إليه من خلال محاولتها تفسير الفعل الاتصالي والممارسة الديمقراطية.

المطلب الأول: المبحث الأول: الديمقراطية الرقمية، المفهوم والدلالة.

أفرزت التكنولوجيا الجديدة في مجال الاتصال فهما جديدا للديمقراطية. وظهر ما يصطلح عليه ب"الديمقراطية الرقمية"، حيث شكلت الثورة الرقمية منعطفا هاما في المسار الديمقراطي، وتحولا جذريا في أساليب وآليات الممارسة الديمقراطية. فما هو مفهومه؟ وما هي دلالاته؟

يشكل التطور التقني الهائل في ميدان الاتصال، الذي أصبح بدوره ظاهرة طاغية في المجتمع المعاصر، سببا أساسيا في تكريس العولمة وتوسيع رقعة التأثير والتأثر. ذلك لأن الوسيلة المسخرة للتأثير على المتلقي لها من القدرات والإمكانات على تشكيله وعلى "تأطير المعلومات وتنظيم التفكير" أدى إلى حلول مجتمع جديد استحوذت على ذوقه وأحاسيسه ووعيه وأفكاره وسلوكياته.

وفي تعريف الشبكات الاجتماعية على الخط Social Networks Online، أو مواقع التواصل الاجتماعي Social Networks Sites، أو مواقع ويب التواصل الاجتماعي Social Networking Web Sites التي تعتبر تطبيقات رقمية، وضعت الباحثتان الفرنسيتان دانا بويد Danah boyd ونيكول إليسون¹ Nicolle Ellisson أحدث تفسير لماهية هذه الشبكات، معتبران أن هذه الأخيرة تعني في مجملها أنها:

أولا: تحتوي على بيانات مرتبطة بهوية فريدة تحمل مجموع المعلومات الخاصة بالمستخدم، والتي يدونها بشخصه، وتلك التي يوفرها "الأصدقاء"، وتلك المحفوظة في قاعدة بيانات نظام المعلومات.

ثانياً: تسمح بإظهار علاقات المستخدم للعامة، وإتاحتهم إمكانية المشاهدة والمشاركة.
ثالثاً: تمكين الوصول إلى كافة المحتويات المنتجة من قبل المستخدم، بما فيها من صور، وفيديوهات، وتجديد المعطيات حول الأماكن و/ أو الروابط التي ينشرها المستخدم.

فشبكات التواصل إذا، هي مواقع إلكترونية تتيح للأفراد إنشاء صفحات خاصة بهم، تدون فيها معلومات حول شخصيتهم (الحقيقة أو المستعارة أو الخيالية) ويتم نشرها للعامة، أما جمهور عريض أو محدود، وبواسطة المستخدم ذاته، إذ تسمح له مشاركة بقية المستخدمين المحتويات التي ينتجها من نصوص أو صور أو فيديوهات ... ويفضل هذه المشاركة وفتح المجال لتبادل المعلومات، والتفاعل بين المستخدم صانع المحتوى والمستخدم المتلقي، نشأت علاقات (افتراضية) أسهمت في صياغة أسلوب جديد للفعل الاجتماعي النابع من صميم الحياة اليومية للفرد والجماعة. وإذا كانت هذه العلاقة التأثيرية المتبادلة بين المستخدم صانع المحتوى وبين الآخر، المستخدم المتلقي، هي التي تبلور التمثلات الاجتماعية التي تشكل إدراكه لذاته، وتوجه وعيه لعلاقته بمحيطه. فأن الحضور القوي، والتواجد الدائم، بل الاقتحام الواسع، للتكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال في حياة الأفراد والمجتمعات، جعل من هذه الوسائط طرفاً ثالثاً في هذه العلاقة، حيث أصبحت شبكات التواصل الاجتماعي ساحة تجتمع، وتتفاعل فيها مختلف شرائح المجتمع.

الحديث عن إشكالية التأثير، يدفع بنا للرجوع إلى أدبيات الرواد الأوائل الذين أولوا اهتماماً واضحاً بدور الوسيلة، ومدى فاعليتها في إحداث ذلك التأثير في المتلقي. ويعتبر مارشال ماكلوهان MARSCHALL MACLUHAN من الرواد السباقين الذين طرحوا إشكالية الوظيفة التأثيرية للوسيلة الإعلامية. وقد بيّن ماكلوهان في طرحه لدور وسائل الإعلام في تشكيلها لاتجاهات وأراء المتلقي، على أن الوسيلة هي : "المتغير المستقل، بينما يشكل التفكير والمعلومة متغيرات تابعة"². ولقد لخص ماكلوهان هذا الطرح في مقولته الشهيرة "الرسالة هي الوسيط (القناة)" أي أن الرسالة (المضمون) يذوب كلية في القناة، وهذه الأخيرة هي التي تمنحه القدرة على التأثير. لقد استبق ماكلوهان بطرحه لإشكالية "تأثير الوسيلة" طغيان الشكل (التقنية) على المضامين، وتلاشي المتلقي أمام سلطة الخطيب، فمع ظهور التكنولوجيا الجديدة للاتصال أضحت من يتحكم في الوسيلة يتحكم في العالم.

ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن ما تملكه التكنولوجيا الجديدة للاتصال من قدرة وقوة للتأثير على الجماهير، جعلتها هي العارض الأساسي للقضايا، فهي من يتحكم في الخبر الإعلامي، ولأن الرأي العام يحكم على القضايا والأحداث من خلال ما تقدمه له وسائل الإعلام، فهذه التكنولوجيا الجديدة للاتصال، وما تنفرد به من خصائص ومميزات، جعلها أبرز الفاعلين وأكثر تأثيراً في تشكيل نظرة الفرد الكلية للظروف أو الواقع المحيط به، وبالتالي في تشكيل الرأي العام ككل.

كان أول ظهور شبكات التواصل الاجتماعي في عام 1995 من خلال موقع Classmaster.com ، حيث استطاعت بفضلها مجموعة من الأصدقاء تبادل الرسائل، ونشر ملفاتهم الشخصية على الموقع. إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل لأنها لم تحقق ربحاً لمالكي الموقع، فأغلق. وبعدها ظهرت مواقع أخرى تطورت وزاد الإقبال عليها، وارتفع عدد مستخدميها. كموقع Myspace عام 2003، twiter عام 2006، وموقع الفاييبوك عام 2004، الذي لا يزال يعرف انتشاراً واسعاً، حيث تشير الدلائل والإحصائيات إلى أن الاعتماد عالمياً على شبكات التواصل الاجتماعي يزداد يوماً بعد يوم. وقد جاء في تقرير Hootsuit أن عدد مستخدمي هذه الشبكات في ارتفاع متزايد، حيث بلغ مستخدمي موقع فاييبوك 2,74 مليار مستخدم عبر العالم. وأن عدد المستخدمين الناشطين على شبكات التواصل الاجتماعي ازداد، وارتفعت نسبة الناشطين عبر موقع فاييبوك لتصل إلى أكثر من 1,8 مليار ناشط وفقاً لتصريحات مؤسسه مارك زوكنبرج Mark Zuckerberg ليرتفع بذلك موقع فاييبوك على المرتبة الأولى بالنسبة لمواقع التواصل الاجتماعي الأكثر استخداماً في العالم .

المطلب الثاني: الوسيلة، والممارسة الديمقراطية

تعد الديمقراطية من أهم المواضيع التي عني بها الفلسفة، ومثار نقاش بين الفلاسفة ورجال الفكر والسياسة منذ قرون. إذ تُرجع الجذور التاريخية لفكرة الديمقراطية إلى الفلاسفة اليونانيين، ويعود مصدر صياغة هذا المفهوم إلى الكلمة الأثينية Demaskratas ، والمتكوّنة من مقطعين: الأول demas ويفي في معناه الشعب، والثاني kratas ومفاده حكم أو سلطة، أي أن مجموع الكلمة يعني حكم الشعب. أما فكرة الديمقراطية باعتبارها مذهباً سياسياً فلسفياً فقد تبلورت مع فلاسفة القرن الثامن عشر أمثال جون لوك، ومونتسكيو، وجون جاك روسو وغيرهم. وكانت الغاية من هذا الفكر الفلسفي هو محاربة الحكم الاستبدادي المطلق الذي عرفته أوروبا. غير أن هذا التنظير المبني على فلسفة الذات القائمة على فكرة العقد الاجتماعي، الذي ينتقل بموجبه الأفراد إلى حالة المدنية، جعل أساس الفعل السياسي الاجتماعي مرتبطاً بالذات ووعي الفرد والمأخوذ بشكل معزول، ذلك ما انتقده هابرماس على أصحاب هذا الطرح ، ليذهب في طرحة إلى أن الفعل السياسي مرتبط بالوعي المشترك ليصبح الفعل السياسي هو مجال عام، أو كما وصفه هابرماس في كتابه الشهير (الفضاء العام)، بـ "منابر واسعة للنقاش والحوار وتبادل الآراء والأفكار ، وحشد الجماهير لمناصرة قضية من القضايا العامة، وتكوين رأي عام حول القائم منها"³

لقد تغلغت الأنترنت في كل منحي الحياة اليومية للأفراد، ولأن لها من القوة والقدرة الكبيرة في حشدهم وتوجيههم وتشكيل بينهم من تصورات جمعية مشتركة.

فإن الحديث عن الديمقراطية يحيلنا إلى الخوض في الأنماط الجديدة للاتصال التي أفرزتها الثورة التكنولوجية في مجال الإعلام والاتصال، وإلى تلك الشبكات الاجتماعية التي أصبحت تمارس دوراً

جوهريا في إثارة اهتمام الأفراد، والدفع بهم إلى التفاعل مع ما يطرح في ساحاتها من قضايا تتعلق بالشأن العام أو تمس بمصلحة العامة). وقد سميت شبكات التواصل الاجتماعية كونها أنت من مفهوم " بناء مجتمعات" غير أن ميزة هذه المجتمعات أنها "افتراضية" فهي نتاج للاتصال الوسطي Metiated Communication الذي عرف ثورة وبشكل غير مسبوق، خاصة ما حدثته الأنترنيت من تغييرات جذرية في بنية العلاقات الاجتماعية بين الناس، التي لم يشهد لها مثيلا و " لا يعادلها ولا يشبهها في قوتها سوى تلك التي أحدثتها الحروف الهجائية في مسيرة المجتمع الإنساني" ⁴.

لتظهر ما يطلق عليها "بالتركيبة الاجتماعية الكترونية" ⁵. إذ أدى التطور السريع والمتسارع لتكنولوجيا الاتصال إلى بناء علاقات تلاشت أمامها الحدود الجغرافية والزمانية، واتسعت فيها وتعددت مساحة تبادل الآراء والأفكار دون قيود اجتماعية أو عوائق سيكولوجية، وتدققت فيها المعلومات بين أفراد وأطراف تساوى الكل في فرص التعبير.

ثورة دفعت بالعديد من المفكرين والباحثين للدعوة إلى إعادة النظر في فهم الأبعاد الاجتماعية لشبكات التواصل الاجتماعي، والبحث عن تأثيراتها على العلاقات الاجتماعية، وما تفرزه من مظاهر وظواهر في المجتمع. كالهوية الإلكترونية، الهوية الخيالية أو المجهولة، الشخصيات غير الاجتماعية (les intrus)، وغيرها.

وعلى هذا الأساس، يمكننا القول أن شبكات التواصل الاجتماعي ساعدت على هدم الحدود المكانية والزمانية، وقربت بين أفراد المجتمع، وجعلت من العالم قرية صغيرة على حد تعبير ماكلوهان لما تتفرد به من خصائص كالنفاذية، اللامهوية، الكونية، السرعة... فهي المجال الذي منح الفرد من أن يصل صوته إلى أبعد ما يتحده وسيلة اتصالية أخرى ⁶. وخلصته من تراتبية وهرمية الوصول والنفوذ إلى المعلومات، وسأوت بين كل مستخدميها في فرص التعبير، وفتحت المجال أمامهم لتطوير النقاش، وشن الفكر والعقل بمضامين مختلفة، تتجاوز في معالجتها وطرحها لتك التي تتناولها وسائل الإعلام التقليدية. حيث أكد لويس كيري **Louis Quére** هذا الطرح من خلال وصفه الفضاء العام "باعتباره فضاء للتداول، أي مكان ينتج فيه التوافق (الوافق) حول القضايا العملية أو السياسية، من خلال مناقشة عمومية للحجج" ⁷. فبفضل الثورة الرقمية، أصبح المواطن بإمكانه أن ينتج بدوره خطابا يحمل في طياته الممارسة السياسية في إطار الدفاع عن القضايا المتعلقة بالشأن والصالح العام. كما أقر **جوتوا كوتن Josttua Cotten** أن الديمقراطية تتحقق حين تلتقي جميع فئات المجتمع لمناقشة قضايا الشأن العام، تتساوى فيها جميع الأطراف في حقهم في إبداء وجهات نظرهم من خلال تبادلهم للحجج والبراهين العقلانية ⁸.

المبحث الثاني:

من الفضاء العام إلى الفضاء الافتراضي

حظي موضوع تأثير الاتصال الوسيط على المتلقي، اهتماما بالغا لدى العديد من المفكرين والباحثين في شتى المجالات، حاول كل منهم تقديم تفسير حول ما تحدثه هذه الوسائط من تأثيرات في حياة الناس، تغييرات في تشكيل اتجاهاتهم ومعتقداتهم، ورسم صور لديهم لملاحم الواقع، تأثيرات أشد النقاش حولها، وزاد الاهتمام بها مع حدوث الثورة التكنولوجية الجديدة التي لم تشهد لها البشرية مثلاً، ليدفع بالمفكرين إلى إعادة طرح إشكالية التأثير، والبحث في دلالاتها، وأبعادها الاجتماعية، وتأثيراتها على المتلقي الذي يصطلح عليه بالمستخدم.

المطلب الأول: الويب 0.2 ودحض أحادية الإرسال

شكلت الظاهرة الاتصالية محورا هاما لدراسات متعددة، حاول من خلالها المفكرون في الغرب تأسيس المبنى النظري لهذه الظاهرة فبرزت عدة نظريات ونماذج ارتكزت في تفسيرها لصيرورة العملية الاتصالية على اعتبارها علاقات مفترضة قائمة بين مجموعة عناصر تتحدد من خلال حركية العلاقات المفترضة القائمة بين هذه العناصر (مرسل، رسالة، متلقي، وسيلة... الخ). وعلى أساس هذه الافتراضات وضعت نماذج محددة لمنظومة الإرسال والتلقي بعناصرها الخمسة.

ومع ظهور التكنولوجيا الجديدة وتنامي استخدام شبكات التواصل الاجتماعي اتخذت عملية الاتصال أشكالاً جديدة وخاصة ما أضافته خدمات الجيل الثاني للإنترنت الويب 2.0، منعطفا هاما في ممارسة الديمقراطية، وتحولا مفاهيمي تجاوز في طرحه النظرة التقليدية الراضحة التي عززت اللاتكافؤ والاحتكار والأحادية في العملية السياسية. كما نجحت في بلورة فكر قادر على أن ينتج خطابا مضادا يحاكي ويتحاكى عبره العامة. طرح جديد أعاد التفكير في إشكالية تأثير وسائل الإعلام والاتصال على المتلقي التي نشب حولها خلاف منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وبلغ أوجه مطلع الخمسينيات مع بروز أصحاب مدرسة التأثير المباشر، ومن أبرز الطروحات كانت: نظرية الرصاصة، أو الحقنة التي أفرزت بدورها اتجاهات اختلفت حول حجم هذا التأثير على الجمهور، إذ أنشق البعض في رؤيتهم للتغيير الذي تحدثه وسائل الإعلام والاتصال، ليس حول وجود التأثير أو عدمه، وإنما كيف يقع هذا التأثير، إذ فسروا أن ظهور آثار التغيير الذي تحدثه لدى المتلقي، يتطلب تعرض هذا الأخير على المدى الطويل وباستمرار للمضامين الإعلامية Long-Term Effet حتى تتمكن هذه الرسائل من تكوين أو تغيير مواقفه، قناعاته، أو معتقداته.

في حين يذهب رواد نظرية تحديد الأولويات Agenda-Setting Theory إلى تجاوز إشكالية التأثير، لطرح أسئلة أكثر عمقا حول كيف يتم تأثير مضامين الرسائل الإعلامية في المتلقي؟ ومتى يحدث هذا التأثير؟

حيث اهتم رواد نظرية ترتيب الأولويات بدراسة العلاقة بين أولويات القضايا التي تطرحها وسائل الإعلام، وأولويات القضايا التي تشغل تفكير الجمهور واهتماماتهم، كعلاقة تبادلية يمكن تحديدها من خلال الموضوعات والقضايا الإخبارية التي تطرحها وسائل الإعلام .

أي أن اتجاهات الأفراد وتصوراتهم حول ما يحدث في واقعهم تكون إلى حد كبير انعكاسا للمعلومات التي استقوها من وسائل الإعلام. إذ يحصل الفرد على المعلومات والآراء والمواقف من وسائل الإعلام التي تساعده على تكوين تصور للعالم الذي يعيش فيه.

ويفيد مناصري نظرية صياغة الواقع Definity Reality أن وسائل الإعلام تشكل اتجاهات الأفراد، و ترسم لديهم صورا ذهنية عن الواقع الذين يعيشون فيه بحقيقته وبزيفه، وعلى الواقع المقدم لهم هو الحقيقة وأنه طبيعي.

فوسائل الإعلام، عبر الترويج لأراء معينة، والتعظيم على الآراء المخالفة، تعمل على تشكيل إجماعا ورأيا عاما حول أجندة اجتماعية أو سياسية. مما يدفعنا للقول أن العملية الاتصالية تشبه إعطاء حقنة في الجسد .حيث يقوم المرسل بصياغة أفكاره ومشاعره في رسالة، ثم يحقنها من خلال وسيلة معينة ليخضع هدفه، أي المتلقي و يوجهه وفقا لمصالحه وغاياته.

وعلى هذا الأساس تظهر وسائل الإعلام والاتصال على أنها " تمتلك الشرعية في تحديد الواقع الاجتماعي والسياسي للمجتمع. فمن خلال تحريكها للوعي الاجتماعي نحو مختلف القضايا فإنها تعمل بذلك على الضغط على الأفراد لتشكيل آرائهم طبقاً للرأي العام السائد في المجتمع الذي يعيشون فيه. فيميلون شيئا فشيئا إلى تبني توجهات الأغلبية خوفا من الانعزال على أنفسهم"⁹

إن تشكيل الآراء ليست عملية فردية وإنما عملية جماعية، ذلك ما توصل إليه لازرسفيلد وزملاؤه بيرلوسون و جوديت سنة 1940، من خلال دراستهم للطريقة التي تؤثر في تكوين الناس لأرائهم، وفي تغييرهم لهذه الآراء. ولأن الفرد يتأثر بأسرته وزملائه ، مثلما أكدته دراستهم، فبالتالي تتشكل آراء هذا الفرد وفقا للمعلومات والمعطيات التي يتناقلها ويتبادلها هؤلاء الأفراد داخل جماعتهم " حيث إن الناس الذين يعيشون في ظل ظروف اجتماعية و اقتصادية مماثلة تتشابه مصالحهم واحتياجاتهم، ينعكس أثر ذلك على اتجاهاتهم السياسية"¹⁰ . فاتجاهات الفرد وأرائه هي إذا، نتاج للفكر الجماعي الذي يتأثر به، ويؤثر فيه أيضا، باعتباره عضو من هذه الجماعة. وبالتالي فإنه مع انتشار استخدام وتنامي شبكات التواصل الاجتماعي، اتسعت رقعة الجماعة المؤثرة، حيث اتسعت قائمة الأصدقاء الحقيقيون لتشتم أصدقاء إفتراضيون قد يفوق عددهم العشرات، أو المئات، بل قد تصل لدى البعض إلى ما يفوق الآلاف.

إن مكانة شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل العلاقات بين أفراد المجتمع المحلي وحتى العالمي، منحت مجالا واسعا للاحتكاك بأكبر عدد فيما بينهم ، ذلك ما يمنح لكل ناشط فعال في هذه المواقع من أن يصبح عنصرا فاعلا في تشكيل وتوجيه آراء الغير. ذلك ما يدفعنا للقول أن مواقع التواصل الاجتماعية تلعب دورا فعال في تكوين اتجاهات الفرد الايجابية أو السلبية منها، ومن هنا يمكننا

القول إن ظاهرة تنامي استخدام هذه المواقع كمنابر للتعبير الحر ظهرت نتيجة للتفاوت الاجتماعي والاختلالات والتناقضات في نسق العلاقات التي تحكم بين أفراد المجتمع ومؤسساته، ونتيجة أيضا لانهايار منظومة القيم فيه، وفقدان الأنظمة الحاكمة المصادقية والمشروعية مما يؤدي به إلى رفضها والتمرد عليها، وإلى إنتاج خطاب مناهض ومضاد لخطابها متخذ من هذه المواقع وسيلته وسبيله لتعبير عن حاجاته ومطالبهم. إنه خطاب جديد لوسيلة جديدة أفرزتها الثورة التكنولوجية للاتصال.

المطلب الثاني: دور شبكات التواصل في تشكيل الفضاء الافتراضي

الحديث عن المجال العام يدفعنا للرجوع إلى نظرية الفضاء العام التي صاغها الفيلسوف الألماني بورغن هابرماس في كتابه الشهير "الفضاء العام" Public Sphere سنة 1962م. وكان الفرضية الجوهرية التي بنى عليها دراسته تكمن في البحث عن : كيف يمكن التمهيد للديمقراطية، وتعزيزها عن طريق المشاركة الواسعة للمواطنين في الشأن السياسي؟. توصل هابرماس إلى أن الأطراف الفاعلة في تشكل مفاصل ما أسماه بالفضاء العام، هي تلك النخبة من الطبقة البرجوازية، التي برزت إبان الثورة الفكرية التنويرية في أوروبا في القرن الثامن عشر، وأسهمت في نشر الوعي وتشكيل الرأي العام في أوروبا من خلال فتح المجال للناقش حول مسألة إعادة تعريف السياسة، وتحديد مجالات اختصاص الدولة. ودعوتهم لكل أفراد المجتمع لممارسة حقهم في التعبير الحر وتبادل المعلومات والأخبار، والمشاركة بالأراء، دون الرجوع إلى المرجعيات التقليدية (كالكنيسة، والحاكم، ...) التي كبلت تفكير الإنسان الأوروبي، وقيدت عقله وحرمته من حقه في المشاركة برأيه في ناقش القضايا المتعلقة بالشأن العام والمصلحة العامة. إنه المجال الذي تلاشت فيه وطأة الهيمنة والأحادية في اتخاذ القرارات المتعلقة بشان العام باعتباره" المساحة التي تشكل الرأي العام، وبالتالي تتيح للرسائل الصادرة عنه من إيصال احتياجات المجتمع إلى الدولة"¹¹.

لعب إذا، الفكر التنويري دورا كبيرا في تحرير الفرد من الاستبداد، وفي إطاحة أنظمة الحكم الديكتاتورية، وإرساء مفاصل المجال العام، ليقفح المجال إلى ما أسماه هابرماس بالعقل التواصلي الذي يتجاوز العقلانية الغربية التي أعطت أولوية مطلقة للعقل الغائي، والتي تهدف إلى تحقيق مصالح وغايات معينة. فهذا العقل يبني على فعل خلاق يقوم على الاتفاق وبعيدا عن الضغط والتعسف وهدفه بلورة إجماع يعبر عن المساواة داخل فضاء عام ينتزع فيه الفرد جانبا من ذاته ويدمجها في الجهود الجماعي الذي يقوم على التفاهم والتواصل العقلي"¹².

أسهمت، وبشكل كبير، الثورة التكنولوجية في مجال الإعلام والاتصال التي شهدها القرن العشرين، في تشكل فضاء عام جديد موازي للفضاء العام الذي تحدث عنه هابرماس، فضاء تغيرت فيه أنماط الاتصال التقليدي، اخترق بعمق ديناميات الحياة اليومية، وأعاد تشكيل التفاعلات الشخصية غير الرسمية بين الناس، وأصبح مصدرا رئيسيا يلجأ إليه الأفراد لاستقاء المعلومات وتبادلها مع الغير في

جميع القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تتعلق بمصلحتهم وبمصلحة العامة. إذ أصبحت شبكات التواصل الاجتماعي تمارس دورا جوهريا في إثارة اهتمام العامة بالقضايا المطروحة، ومنحتهم قدرة أكبر وإمكانية أوفر للتعبير الحر، والمشاركة الواسعة لتبادل الآراء والنقاش حول قضايا الشأن العام، كون الانترنت فضاء عموميا جديدا، يفتح المجال الواسع للنقاش ويشجع على تبادل الأفكار، وتشكيل الإجماع حول القضايا المطروحة. ذلك ان "الأفعال الاتصالية تعمل على تحقيق التماسك بين أفراد المجتمع. بحيث توجه هذه الأفعال التواصلية، إما لتحقيق التفاهم أو لتحقيق النجاح"¹³.

ذلك ما أكده **بارتران موكي** Bertrand Mockey حين أشار إلى أن "الانترنت مكمل للديمقراطية، كما يمثل الانترنت، من جهة أخرى، العنصر الأساس للتغيير الديمقراطي"¹⁴.

فالفرد في محاولته لاستخدام هذه الوسيلة لإيصال مطالبه أو التعبير عن رأيه، أو رفضه أو عصيانه، فهو يحاول من خلال ذلك الخروج بذاته من دور المتلقي السلبي إلى عنصر فاعل وفعل في العملية الاتصالية. ويعبر **آلان توران** Alain Touraine عن هذه الوضعية قائلا: "تسير الحركة المجتمعية والديمقراطية جنبا إلى جنب، فهما أبعد ما يكون عن التفاوض أو الانفصال. فالنظام السياسي الذي لا يرى في الحركات المجتمعية إلا تعبيراً عنيفا عن طلبات مستحيلة التلبية، يفقد صفته التمثيلية كما يفقد ثقة الناخبين"¹⁵. ويضيف برهان غليون "أن تفتقد الديمقراطية وتتهار أسس التعايش الاجتماعي والتماسك المدني لغياب معيار مشترك، سمي منذ عقدين منصرمين بالثقافة، وهو يسمى اليوم بالتواصل، فافتقاد الجماعات المتنافسة على الخيرات المادية والرمزية رموزا مشتركة وقنوات اتصالية متبادلة للتفاوض والتنازل، والتركيب بين النصر والهزيمة يؤدي إلى الحرب الأهلية والاقتتال المدني."¹⁶

هنا، يظهر دور الانترنت بصفة عامة وشبكات التواصل الاجتماعي بصفة خاصة كوظيفة محورية في الممارسة الديمقراطية، إذ يؤكد **Hugues Casenave** أن تصدع العلاقة بين الحاكم والمحكوم وانعطافها نحو الأسوأ سببه "عدم توازن الأدوار في عملية التواصل بين الحاكم والمحكومين، (...) وهذا ما يؤدي بدوره إلى دحض فكرة الديمقراطية"¹⁷.

فنتيجة للتفاوت الاجتماعي الاختلالات والتناقضات في نسق العلاقات التي تحكم بين أفراد المجتمع ومؤسساته، ونتيجة أيضا لانهايار منظومة القيم فيه، يفقد خلالها الأفراد الاعتقاد بمصدقيه ومشروعية المعايير مما يؤدي به إلى رفضها والتمرد عليها. وللجوء إلى المجال الافتراضي لإنتاج خطاب مناهض ومضاد لخطابها متخذ من هذه المواقع وسيلته وسبيله لتعبير عن حجائه ومطالبهم. إنه خطاب جديد بوسيلة جديدة أفرزتها الثورة التكنولوجية للاتصال. فضاء افتراضي يتجادل فيه "الاحتجاجي والسياسي"¹⁸ في موقف يُجَز في مقام تواصلية تفاعلية يعكس في أبعاده إشكالية العلاقة بين السلطة والشعب وما تطرحه من قضايا.

خاتمة:

ولكون تشكيل الآراء ليست عملية فردية وإنما عملية جماعية، وباعتبار أن الفضاء العام، هو الفضاء الذي يتهيكّل فيه النسق الاتصالي من خلال وجود حوار بين الأفراد، فإن قوة وقدرة شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الرأي العام، وبروز رقعة الجماعة الافتراضية المؤثرة، جدد الدعوة لإعادة النظر في العناصر الفاعلة والفعّالة في تشكيل الرأي العام، وكذا في كيفية تشكيل الفضاء العام في ظل ثورة تكنولوجية، التي منحت لكل أفراد المجتمع فرص التعبير الحر للمشاركة في طرح ومناقشة قضايا تتعلق بالشأن العام .

إن نظرتنا لواقع الممارسة الديمقراطية عبر منصات شبكات التواصل الاجتماعي يدفعنا للقول إن دعوة هابرماس وكل أتباعه لتحرير العقل والفرد من كل أشكال الهيمنة والاحتكار لقيام مجتمع يبني على أساس فكرة "قبول الآخر"، و إعطاء بعد إنساني للعملية الاتصالية، في إطار فضاء عام يشمل كل الأطراف للمشاركة في نقاش حر، متبادل عقلائي حقيقي واقعي خال من كل احتكار للفصل في قضايا الشأن العام، وجدت فضاء كفيلا لتحرير "الاتصال" من كل أشكال الأحادية والتسلط ليترك المجال إلى حوار تلاشت أمامه العوائق الجغرافية والزمانية، مجال عام افتراضي تتساوى فيه فرص الأفراد في التعبير والمشاركة حول قضايا الشأن العام،

إنها دعوة من خلال هذه الورقة المقدمة لطرح نقاش جاد حول دور هذه الشبكات، ومدى فعاليتها في تعزيز الديمقراطية، أو فاعليتها في الانزلاقات التي قد تؤدي بالممارسة الديمقراطية إلى الانعطاف نحو الخطر الذي يهدد استقرار المجتمع . ذلك أن بحث الأفراد عن ممارسة الحرية، ومنها الحرية في التعبير، من طبيعة الإنسان وفطرته، ولنمط النظام السياسي، وطبيعته، وللايديولوجية التي يتبناها تأثيرا كبيرا على المحيط الاجتماعي الذي يتواجد فيه هؤلاء الأفراد، بدرجة يجعل منهم مواطنين راضين عن أوضاعهم أو ساخطين عليها.

ذلك أن الأطراف المشاركة في عملية التواصل، هي التي تحدد طبيعة العلاقة التي تجمعهم ببعض. فإذا لم يستطع هذا النسق تحقيق نوع من الاستقرار، فإن العلاقة لا يمكنها الاستمرار وقد تتحول هذه الوضعية، أي وضعية التواصل، إلى وضعية الصراع نتيجة لنمط التبادل الذي تعتمده الجماعة. حيث أن خطاب النفي أو الإقصاء داخل أي نظام علائقي يؤدي بالأطراف المهمشة أو المقصاة إلى أن تكون لنفسها نظاما دفاعيا وهذا ينطبق على أي نمط من أنماط السلطة، من أبسط خلية عائلية حتى أكثرها تعقيدا كالتنظيمات السياسية والاقتصادية والدينية وغيرها.

الهوامش:

1. Danah Boyot ; Nicolle Ellisson : Réseaux sociaux, Numérique et capital social/ entretien réalisé par Thomas Stenger et coutant ; N Annick Thierry. Hermès. La revue 2011 N 59. (P 22)
2. Hugues Cazenave: Les modèles de la communication, Cahiers Français, n° 258 « la communication Oct-Dec 1992.(P 61)
3. Habermas ; Jürgen (1988) : L'espace public, Archéologie de la publicité. comme dimension constitutive de la société bourgeoise. Paris. Payot. P 96.
4. Quéau phillipe (1996): Le virtuel ; Une utopie Réalisée. Quaderni , N28 ,hiver, Utopie et-imaginaire de la communication. 1996 (P111)
5. Quéau phillipe ,Ibid ; (P 119)
6. عبد الباسط أحمد هاشم شاهين، التفاعلية على مواقع الصحف الالكترونية، ط 1، دار العلوم القاهرة، 2014، (ص 68)
7. Jacques Gerstlé: La communication Politique ; Armand Colin ; 2ème édition 2008 (PP 35-36)
8. Jacques Gerstlé, ibid.(P 13)
9. (H. Casenave. Op cité. 60)
10. عاطف عدلي العبد: مدخل إلى الاتصال والرأي العام. دار الفكر العربي. القاهرة. 2008. (48)
- 11.Habermas ;J.: L'espace public ;Op cité, 1991(P 96)
12. عمر مهيبيل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف. 2017، (ص 348)
- 13.Lucien Sfez: Critique de la communication Seuil ; Paris. 1992 (P 9)
- 14.Jacques Gerstlé. Op cité .(P13)
- 15.Alain Touraine: Critique de la modernité ; Paris, librairie Arthème foyard. 1995, (P 421).
- 16.محمد سلام شكري: المجتمع المدني بين الواقع والإيديولوجيا (الكائن والممكن في المجال العربي) .عالم الفكر. 2008 (ص ص32،30)
- 17.H. Casenave. Op cité. (p 58)
- 18.عبد الرحيم العطري(): سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية. مجلة إضافات. العدد 13. 2011 (ص 23)